أهمية الدروس المسجدية في حياة الإنسان المسلم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، إمام العلماء، وسيد الحكماء، القائل: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين "(رواه البخاري)، وبعد:

كثيراً ما أُسأل : ما الفائدة من حضورك مجالس العلم في المساجد ؟ ألا ترى الأسواق والمكتبات والمعارض مليئة بتلك الكتب التي تدرسونها هناك؟ فعلام تتحمل مشقة الذهاب إلى المسجد و(تضيع وقتك) في حضور تلك الدروس مع أن بإمكانك شراء هذه الكتب وقراءتها وحدك في المنزل؟

وما أرى السائل إلا ناصحاً، وما أظنه يرى فكرته تلك إلا خطوة ذكية لتحصيل العلم وكسب الوقت بآن واحد.

وفي الإجابة عن هذا السؤال ثلاثة أفكار نتعرض لها بشيء من التفصيل والتمثيل:

أولاً : لوازم السؤال .

ثانياً : الفوائد العلمية للدروس المسجدية .

ثالثاً : الفوائد الأخروية والروحية للدروس المسجدية.

أولا: لوازم السؤال:

من الجدير بالذكر في صدد الإجابة عن هذا السؤال أن نعلم أن القول : " إن الدروس العلمية التي تقام في المساجد عديمة الفائدة و أن قراءة الطلاب لمقررات هذه الدروس وحدهم كل في منزله أحسن " يستلزم بالضرورة القولَ: **" إن الدروس العلمية التي تقام في المدارس والمعاهد والجامعات هي الأخرى عديمة الفائدة، وأن قراءة الطلاب لمقررات الصفوف المدرسية والمراحل الجامعية وحدهم كل في منزله أحسن "**.

وعلى هذا فإن السؤال لم يعد موجهاً إلى فئة قليلة من الناس – ويا للأسف – ممن يحضرون مجالس العلم في بيوت الله سبحانه، بل إنه يأخذ مجرى آخر في توجيه النقد إلى حكومات ومسؤولين وجهوا ميزانية دول ورؤوس أموال ضخمة لتشييد المدارس وبناء الجامعات، وإلى أساتذة ودكاترة خصصوا جهودهم وطاقاتهم وأوقاتهم – أو معظمها – للتدريس في تلك المدارس والجامعات، وإلى آباء وأمهات يجهدون أنفسهم في إرسال أولادهم إلى مدارسهم وتدريسهم والنفقة عليهم كي يكون لهم في الغد القريب مكان في كلية جيدة، وإلى طلاب يبذلون الكثير من الوقت والجهد في الذهاب إلى جامعاتهم وحضور محاضراتهم – أو هكذاا ينبغي أن يكونوا!! .

فينبغي التمهل إذاً قبل طرح هذا الاعتراض.

ولا يدفعنك حرص كثير من الناس على مجرد التخرج من الجامعة ونيل الشهادة إلى القول بأن كل ما نراه من مدارس وجامعات أُنشئ من أجل الشهادة وحسب.

كلا، بل إن الشهادات والإجازات العلمية لم يكن لها قيمتها إلا لأنها توحي بكفاءة علمية من ورائها، تشهد لصاحبها بها، هذا هو الأصل الذي من أجله أنشئت المدارس وبنيت المعاهد وشيدت الجامعات، إنه خدمة العلم ونشر المعرفة وتخريج الكفاءات العلمية المقتدرة، ولا عبرة بمن شذوا عن ذلك مهما كثر سوادهم، وعلا ضجيجهم.

والكل يشهد أن من كان العلمَ هدفُه إلى جانب الشهادة، والمعرفةَ همُّه إلى جانب الإجازة كان النجاح حليفه، والتوفيق رفيقه، وأن من أبى هذا أبى عليه النجاحُ حلفَه، والتوفيقُ رفقتَه.

والكلام في هذا يطول وليس أصل حديثنا فلندع النظر فيه ولنرجع إلى ما نحن فيه لنقول :

وإن من الجدير ذكره – أيضاً – في صدد الإجابة عن ذاك السؤال أن القول: " إن الدروس العلمية التي تقام الآن في المساجد عديمة الفائدة، وأن قراءة الطلاب لمقرراتها وحدهم كل في منزله أحسن "، يستلزم بالضرورة القول: " إن الدروس العلمية التي كانت تقام في عهد علماء هذه الأمة هي الأخرى عديمة الفائدة، وأنْ لو قرأ الطلاب في ذلك الوقت ما كانوا يتعلمونه على أيدي علمائهم وحدهم كل في منزله لكان أحسن".

وعلى هذا فإن السؤال – أو الاعتراض – لم يعد موجهاً إلى تلك الفئة القليلة – ونسأل الله أن يكثرهم – ممن يعمرون المساجد بالدروس والعلم، بل أصبح موجهاً إلى جميع علماء الأمة وطلاب العلم فيها من السلف، ممن نشروا العلم والفقه والنور بين صفوف الناس ، حيث سطروا في تاريخ العلم صفحات مشرقات تُتلى على مدى الأزمان.

فينبغي التمهل إذاً قبل طرح هذا الاعتراض.

ولا تدفعنك كثرة الكتب اليوم وسهولة تناولها وشرائها عما كانت عليه في زمانهم إلى القول بأن عدم توفر الكتب لديهم في ذلك الوقت هو الذي اضطرهم إلى حضور مجالس العلم وحلق الحديث والفقه، فإن الجهود التي كانوا يبذلونها في طلب المشايخ والسفر إليهم كانوا سيبذلون نصفها أو ربما نصف عشرها لتحصيل الكتب فقط، لو كانت قراءة الكتاب وحدها كافية.

وقد أُلف في السفر في طلب العلم وقصد المشايخ كتب ومصنفات، منها"الرحلة في طلب الحديث"، وكذلك كتاب " صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل".

واعلم – علمنا الله وإياك الصواب – أننا إنما نقصد تلك الكتب التي تتناول الكلام في القرآن وتفسيره، والفقه وأصوله، والحديث ومصطلحه، والعقيدة وعلومها، والتصوف وتزكية النفس، وما أشبه ذلك، أما الكتب الثقافية غير

التخصصية مما لا تحتاج معها إلى خبير يشرحها لك ولا متخصص يحل لك ألفاظها ومعانيها فلا شك أن الغرض منها مجرد القراءة دون شرح وتطويل، بل إنك لن تجد – أساساً – من يتصدى لشرحها، والله تعالى أعلم.

خلاصة :

علمنا مما سبق أن اتهام القلة التي تحضر الدروس المسجدية اليوم يستلزم بالضرورة اتهاماً مماثلاً للقائمين على المدارس والجامعات من مؤسسين ومدرسين وطلاب، كما يستلزم – أيضاً – بالضرورة اتهاماً مماثلاً لعلماء الأمة جميعهم منذ أقدم عصورها.

ثانياً : الفوائد العلمية للدروس المسجدية :

لا أعتبر الكلام السابق إجابة كافية للسؤال المطروح، إنما هو وضع للسائل – أو ربما المعترض – أمام مسؤولية ما يقول، وهو (طرح للمشكلة) بجميع أبعادها ومستلزماتها لعل السائل يتحول من موقع الهجوم إلى الدفاع، أعني من موقف سائل إلى من يحاول البحث عن الإجابة.

أما عن أهم الفوائد العلمية التي يجنيها الطلاب من حضورهم الدروس المسجدية زائدة عما يُحصِّلونه عند قراءة مقرراتها وحدهم كل في منزله فهي :

تعلم الحوار العلمي : لا يكتسب الطالب مكنة في العلم الشرعي ولا تثبت قدمه فيه إن لم يجرِ بينه وبين أستاذه حوارات ونقاشات تتضمن أسئلة وإشكالات حول ذلك العلم وأصوله وأدلته : العقلية والنقلية...، وكذا أن يستمع إلى أسئلة غيره من الطلاب ويناقشها ويستفيد من النافع منها.

ومثال ذلك أن يقول الأستاذ : إن من الإثم المحرم أن يتحلى الرجل بالذهب بدليل ما رواه مسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه، وقال : أيعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده؟ فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه سلم : خذ خاتمك انتفع به، قال : لا والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فيسأل أحد الطلاب الأذكياء : وعلام يُحرَّم الذهب ولا يحرم غيره من المعادن النفيسة كاللؤلؤ والألماس والبلاتين؟

يجيب الأستاذ : لأن الذهب إنما جُعل قيماً للمنافع والأعيان، وقد خلقه الله عز وجل لتتداوله الأيدي ويكون حاكماً بين الأموال بالعدل، وليتوسل الناس به إلى سائر الأشياء، فاتجهت جهود الناس كلهم من جراء ذلك إلى السعي لحيازة ما أمكن من هذه القيمة الذاتية للأشياء، كل يسعى إلى ذلك بما يطرحه في المجتمع من منافع ومقومات مختلفة، فهل يجوز لأحد أن يستأثر بهذا لنفسه، ويجمده بيده، ويبعده عن تداول الناس؟

الطالب : كلا، لا يجوز.

الأستاذ : ألا ترى معي إذاً أن التحلي بالذهب والتختم به نوع من أنواع كثيرة من تجميد الأموال ومنع نفعها عن الناس؟

الطالب : بلى، ولكن أما كان ينبغي أن يتجه التحريم إذاً إلى الرجال والنساء جميعاً من أجل هذه الحكمة؟

(أرايت... إنه التعليم التفاعلي الذي لن يجده الطالب وحده أمام مكتبه في غرفته).

الأستاذ : أحسنت، غير أنه قد غاب عن ذهنك أن الذهب إلى جانب كونه قيمة للمنافع والأعيان، فإنه مظهر من مظاهر الزينة، والمرأة بفطرتها وطبيعة تكوينها سبب من أسباب متعة زوجها وإسعاده، فمن أجل ذلك كان تزين المرأة بالقدر الذي لا يأباه العرف العام والذوق الإنساني مباحاً لا يخالف في شيء ما قلتُه لك من أنه لا يجوز حبس الذهب وتجميده ومنعه عن الناس، وهذا لا يرد في حق الرجال أبداً.

طالب آخر : فإن أسرفت المرأة في التزين وأكثرت من قطع الحليِّ الذهبية؟

الأستاذ : إذا ما تجاوزت المرأة حدَّ الزينة الذي يتفق مع العرف العام والذوق الإنساني، استوت هي والرجل في حكم التحريم.

[استفدتُ هذه المعلومات من كتيب للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي – حفظه الله ونفع به – بعنوان "من أسرار المنهج الرباني"، ثم صُغتها على شكل حوار]

أرأيت... أرأيت كيف يتعلم الطالب الذكي – والذكي فقط – الحوار الموضوعي، والنقاشَ العلمي ، فيسأل عما يريده، ويستمع بانتباه إلى إجابة سؤاله.

إن طريقة الحوار هذه تساعد على تثبيت المعلومة وترسيخها في ذهن الطالب وتساعده على حفظها، وتكوِّن لديه قناعة تامة بها وقدرة على نقاشها وتمحيصها والدعوة إليها وشرحها مما لا يكتسبه فيما لو قرأ تلك المعلومات من الكتاب وحده.

ولا يخفى أن لهذا الأسلوب دوره في تنمية الشخصية لدى الطالب، واكتسابه جرأة في الكلام، وقوة في الحجة والبيان.

الأخوة العلمية : أو بتعبير آخر " الزمالة العلمية "، وإنما أعني بها النقاش العلمي الذي يحدث بين الطلاب بعد الدرس، حيث يتكلمون فيما بينهم عن الأفكار التي طرحت فيه، وعن كيفية الاستفادة مهنا وتطبيقها في مجالات الحياة المختلفة ....إلخ .

ومثال ذلك : بعد درس في السيرة النبوية – على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام – ذُكرت فيه قصة المرأة التي كانت تكنس المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف أنها لما توفيت افتقدها النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها، فقيل له : ماتت يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وسلم : أفلا كنتم آذنتموني.

فصغروا شأنها، وقالوا أيضاً: ماتت بليل فكرهنا أن نوقظك.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دلوني على قبرها، ففعلوا، ثم وقف وصلى عليها.

بعد هذه القصة – مثلاً – يجتمع الطلاب يتحدثون عن أمر الإسلام بالنظافة وحثه على أن تكون مساجد المسلمين وطرقاتهم وساحاتهم وأماكن تجمعهم غاية في الجمال والحسن والنقاء.

فهذا يذكر حديثاً، وآخر يذكر موقفاً آخر من مواقف السيرة، وثالث يذكر حادثة من التاريخ الإسلامي حول ذلك، فيتشكل في ذهن الطالب من جراء تلك الصحبة العلمية ثروة علمية جيدة حول موضوع الدرس، لكن انتبه! ذلك فقط عندما يحسن الطلاب الاستفادة المثلى من هذه الدروس والمناقشات، وهذا ما نرجوه ونأمله.

وربما ذكر أحدهم أنه في سبيل خدمة بيوت الله عز وجل أقيمت جمعية ترعى النظافة فيها وتقوم بحملات ميدانية للعمل في المساجد وتنظيفها، وأنها تعلن عن حاجتها إلى عمال بأجور معينة أو متطوعين ليشاركوا في تلك اللجان الناشئة، ومن يدري...؟لعل بين الطلاب من هو بحاجة إلى عمل!! ....

أرأيت ... إن مثل هذا لا يمكن أن يجده الطالب وحده بين أدراج مكتبته.

تفادي الأخطاء المحتملة: كثيراً ما يتعرض القارئ لسوء في الفهم، أو لقراءة شيء ما على غير حقيقته، وخاصة عند القراءة العَجِلة.

وللأخطاء المطبعية دور – كذلك – في تكوين فكرة خاطئة عن الموضوع المكتوب، والتي تتكون في ذهن القارئ على خلاف ما يقصد المؤلف.

وذلك – للأسف – ما لا يدركه من ينفردون بالقراءة دون الاستعانة بالمتخصصين، لأنهم بطبيعة الحال لا يشعرون بأخطائهم أصلاً، ولا يجدون من ينصح أو يصحح، وربما لا يجدون من يسألونهم، بل .... إنهم لا يرون ضرورة للسؤال!!

والله جل جلاله يقول: "....فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".[سورة النحل آية (43)

فتجد من جراء ذلك أن الأفكار تُنشر على ألسنة هؤلاء من الكتب على خلاف ما يقصد مؤلفوها، والأخطاء تتراكم في أذهان "طلاب الكتب".

ومثال صغير على ذلك، أن يقرأ أحدهم خطأ قول النبي صلى الله عليه وسلم:"سبحان الله ما نُزِّل من التشديد في الدين، والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل، ثم أحيي ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه"[صححه الحاكم والذهبي]، ويصل إلى معنى من هذا الفهم الخاطئ، أن التشديد في الدِّين والتدين واقع ومرغوب.

ومع أن سياق الحديث يُفهم المعنى الصحيح تمام الفهم، إلا أنه لا يُستبعد مع سرعة في القراءة وقلة من الفهم العام للإسلام، ومع موجة عارمة من اتهام الإسلام والملتزمين به بالتشدد والتزمت و...و.... ، لا يستبعد مع هذا كله أن يقفز إلى الذهن ذلك المعنى الخاطئ.

بينما لن يخفى على أستاذ في مسجد أن لفظ الحديث هو "التشديد في الدَّين"، ولن يفوته أن ينبه الطلاب من خلال هذه الناسبة إلى أهمية الابتعاد عن الغلو والتشدد، وقد قال عليه الصلاة والسلام في قول بليغ مختصر:"هلك المتنطعون".[رواه مسلم وأبو داوود وغيرهم]

والمتنطعون هم المبالغون في الأقوال والأفعال.

وقد قرأت في هذا الموضوع كلاماً جيداً صالحاً للاستشهاد هنا، ونصه:

وحين يتأمل المرء في بعض الكتب الصادرة ، وما يجد فيها من فهم خاطئ لبعض نصوص الكتاب والسنَّة ، وأقوال أهل العلم، يتيقن بأنَّ الخطأ ليس في صياغة الشيخ في كتابه بدلالاته اللغوية، ومعانيه الكلاميَّة، وإنَّما من الفهم القاصر لقارئ الكتاب، ممَّا يجعله ينزلق في الفهم القاصر، كما قال ابن القيم:(ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة) [مدارج السالكين2/431]. وصدق من قال:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتُه من الفهم السقيم

[من كتاب المفصل في أحكام الهجرة لعلي الشحود]

وهذا ما لا سبيل لتفاديه إلا بحضور دروس يتصدى فيها أهل التخصص لإزالة المشكلات وتوضيح بعض الأخطاء الشائعة، ثم استقبال الأسئلة في سبيل تقويم نوع آخر من الأخطاء الأقل شيوعاً، وقد قيل:

ومن يأخذ العلم من شيخ مشافهة يكن عن الزيغ والتصحيف في حرم

توفير الوقت والجهد : إن البحث المجرد في الكتب في فن من الفنون أو علم من العلوم وحده دون الاستعانة بمتخصص متمكن يستهلك وقتاً أكثر فيما لو استعان ذلك الباحث بمن سبقه في هذا المجال من أهل الاختصاص والتمكن فاستفاد من خبرته وأخذ من تجربته.

وذلك أن يلخص ذلك المتخصص لك الأفكار الكثيرة بكلمات قليلة مفيدة تكفيك طول القراءة والحفظ، أو يدلك على كتاب جامع مختصر يغنيك عن قراءة المطولات، أو أن يرشدك إلى طريقة في الحفظ تختصر لك الوقت والجهد معاً، أو أن يعرض لك الفكرة بأسلوب سهل ميسر يريحك به من طول التأمل والنظر.

وأيضاً :

لا يخفى أن هذه الفوائد الأربعة لا تقتصر على الدروس المسجدية وحدها، بل يشترك في الاستفادة منها طلاب المدارس والمعاهد والجامعات، كل ذلك إذا ما أحسن الواحد منهم الاستفادة الجيدة من الدروس والمحاضرات.

حيث إن أركان التعلُّم عديدة : المعلِّم والمتعلم والمقرَّر، الدروس و والندوات والمحاضرات،الكتب والمقررات والامتحانات.

ولا يمكن بحالٍ الاستغناء عن واحد من هذه الأركان.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن لبعض العلوم الشرعية خصوصيتها، فضبط قراءة القرآن – مثلاً – وتقويم اللسان على نطق الحروف من مخارجها، وتصحيح التلاوة لتتفق مع أحكام التجويد (النظرية)، والتشرف بالانضمام إلى القافلة المباركة التي حملت القرآن الكريم إجازة وإقراء، كل هذا لا يتم إلا من خلال عرض التلاوة على قارئ متقن مجوِّد مجاز، وبذلك تصح القراءة ويتصل السند.

وذلك بداهة لا يمكن للمصحف أن يفعله، فأوراق المصحف لا تصحح خطأً، ولا تقوم مخرجاً، ولا تمنح إجازة، بل القراء المجازون هم من يفعل ذلك.

وفي تقديري، فإنه لو لم يكن لهذه الدروس والمعاهد المسجدية إلا هذه المهمة في حفظ كتاب الله عز وجل، وتقويم الألسنة على تجويده وتلاوته، واتصال سنده، لكفاها مكانة وأهمية.

خلاصة :

علمنا مما سبق أن لحضور الطالب الدروس العلمية في المساجد فوائد تزيد على مجرد الحصول على تلك المعلومات من الكتب وحدها، وهي : تعلم الحوار العلمي، والأخوة العلمية، وتفادي الأخطاء المحتملة، وتوفير الوقت والجهد.

ثالثاً : الفوائد الأخروية والروحية للدروس المسجدية :

بقي أن نعلم أن لحضور الدروس المسجدية والدورات القرآنية نتائج تربو على مجرد كونها فوائد علمية بحتة، فإن للجانب الروحي أثره الذي لا يجوز للعقلاء أن ينسوه أو يهملوا جانبه.

ونذكر من هذه الفوائد :

تحصيل الأجر الأخروي : يخطئ كثير من الناس في فهم معنى رجاء المؤمن للأجر الأخروي، وينظرون إليه نظرة غرابة وازدراء!!

وإن أردت أن تتأكد فما عليك إلا أن تقول في جماعة أصدقائك أنك تفعل كذا طمعاً في الجنة، أو رغبة في الأجر، وأما بقية القصة فيكملها لك موقف الدهشة أو التهكم الذي يلاقيك به معظمهم إن لم نقل كلهم، أو في أحسن الأحوال يكتمونه عنك في صدورهم.

ولذلك أسباب كثيرة يُعد التفصيل فيها خروجاً عن أصل الموضوع فلا نتعرض له، ولكن أهمها فقدان التصور الصحيح لحقيقة طلب الأجر والمثوبة من الله جل جلاله.

ولعلل من المناسب أن نذكر وجهاً من أوجه الفهم الصحيح لحقيقة الشيء الذي يدعو المؤمن إلى طلب المثوبة من الله جل شأنه، وبيان ذلك ما يلي:

لا يختلف اثنان أن من أهم أسباب نجاح الإنسان وتفوقه التخطيط الجيد والتفكير الجاد فيما يستقبله من حياته، وكلنا ينحني تحية إكبار وإعجاب لشاب تجده ممسكاً القلم يضع برنامجاً ينظم فيه وقته ويرتب من خلاله أولوياته ويرسم فيه تصوراً لمستقبله، إن عظمة هذا الفعل لا تحتمل جدلاً البتة.

ولست أرى الحرص على الجزاء الأخروي والثواب من الله تبارك وتعالى إلا نوعاً من التخطيط الواعي للمستقبل، ذلك المستقبل الأبدي.

وإذا كنا نثني على شاب يخطط لعشرات السنين مرة، فقد حُق لمن يخطط لملايين غير منتهية من السنين أن نثني عليه ألف مرة.

إن حياة الإنسان في هذه الدنيا مهما امتدت فلن تتجاوز كثيراً بضع عشرات من السنين، ومع ذلك فإننا نعد تنظيم هذه الفترة القصيرة إنجازاً عظيماً، ثم... إذا ما رأينا المسلم يسعى إلى تنظيم حياة أبدية، ويفكر بمستقبل تتجاوز حدوده ملايين السنين غير المنتهية تنكبنا له ورميناه بمختلف ألفاظ السخرية والاستهزاء!!

وفي هذا تناقض واضح لا يجوز أن يقع فيه مَن كان في رأسه مثقال ذرة من عقل.

ولا تفهمن من كلامي هذا أنني لا أعبأ بتنظيم الوقت ورسم الأهداف واتخاذ الوسائل اللازمة لها، كلا! إنني لا أقصد إلى هذا أبداً، بل أقول : إنه لا يجوز أن نهمل شؤون الدنيا كما لا يجوز أن ننسى يوم الدين.

إذا عُلم هذا، فلنعلم أن لحضور المسلم مجلسَ علم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى ثواباً عظيماً وأجراً كبيراً وعده إياه ربه جل جلاله ، والكريم إذا وهب جاد، وإذا أعطى أدهش، فلله الحمد والمنة، وقد جاء الوعد بهذا الثواب على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة ترغب في هذا الخير وتحث عليه، ولنذكر منها أربعة أحاديث فقط :

الحديث الأول : روى الترمذي وأبو داوود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة".(صحيح)

الحديث الثاني : وروى الإمام أحمد عن صفوان بن عسال رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من خارج يخرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع".(صحيح)

الحديث الثالث : وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "...وما جلس قوم في مسجد من مساجد الله يتلون فيه كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده".(صحيح)

الحديث الرابع: وروى الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يُعلمه، كان له كأجر حاج تاماً حجتهُ).(صحيح)

وواضح أن وضع الملائكة أجنحتها لطلاب العلم وحفها لهم في مجالسهم بشرى لهم بالأجر الجزيل من المولى الكريم سبحانه، وكذلك – بل أعظم منه – ذِكر الله جل شأنه لهم في الملأ الأعلى من الملائكة وعباده المقربين.

ولا ننسى في هذا الموضوع أجر الخطو إلى المسجد، والاعتكاف فيه، وصلاة ركعتي تحية المسجد، وأداء الصلاة المفروضة جماعة فيما إذا وافق وقتُ الدرس وقتَ صلاة ما – وهو الغالب – فقد ورد في ذلك من الأحاديث ما لا أظنه يخفى على مسلم، يعيش في بلاد المسلمين ويحضر خطبة الجمعة على أقل تقدير، وسنورد بعضاً قليلاً منها من باب التعاهد والتذكير، فقد قال سبحانه : "وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين" :

أجر الذهاب إلى المساجد : روى البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً كلما غدا أو راح" [ومعنى غدا : ذهب في الصباح، راح : ذهب في المساء، والمقصود في كل وقت، والنزل : الضيافة والإكرام]

أجر المكث في المسجد والتوطن فيه : روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم وابن خزيمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما توطَّن رجل المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم إليهم".(صححه الحاكم وابن خزيمة)

وروى الإمام أحمد – أيضاً – عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان في المسجد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة".(صحيح)

أجر ركعتي تحية المسجد : روى البخاري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله عليه وسلم : "من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد فركع ركعتين غُفر له ما تقدم من ذنبه، ولا تغترُّوا".

من أجر صلاة الجماعة والخطو إلى المساجد : " روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء وأتى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رُفعت له بها درجة وحُطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه : اللهم صلِّ عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة".

فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

وبهذا يتضح أن الطاب ينال بالدروس المسجدية الثواب والأجر، كما ينال العلم والفكر.

الأخوة في الله عز وجل : لا أقصد هنا أن أعيد ما ذكرته من الفوائد العلمية التي يحصلها الطلاب (الأذكياء) من جراء اجتماعهم، فقد سبق هذا الكلام في موضعه.

إنما أعني أن أذكر ما لهذه العلاقة المباركة من ثواب ينتظر المتحابين في الله يوم القيامة.

ولا بأس أن نذكر هنا وجهاً آخر من أوجه الفهم الصحيح لحقيقة الشيء الذي يدعو المؤمنَ إلى تطبيق أحكام الله ابتغاء الأجر منه جل جلاله، فإنه ليؤلمني أن أرى كثيراً من الشباب زاهدين بالثواب الأخروي والأجر يوم الدين، ثم لا تسمع من الواحد منهم كلمة أسف أو حسرة، بل يجادل ويماري ليوهم نفسه أنه على الصواب، وأن هذا ما يقتضيه العقل اليوم.

لذلك آثرت أن أركز في هذين الوجهين على تعليلات عقلية منطقية تدفع المسلم أن يدعو ليل نهار:"ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار"، وبيان هذا الوجه الآخر ما يلي:

أرأيت إلى إنسان استشار في سبيل علاج مرض عضال طبيباً حاذقاً متخصصاً، قد منحته واحدة من أفضل الجامعات العالمية إجازة الدكتوراه في اختصاصه، كما أن له خبرة في علاج مثل ذلك المرض تزيد على ثلاثين عاماً فأشار عليه ببعض الإجراءات وتناول بعض الأدوية.

وإذا بهذا الإنسان – ويا للعجب – يستشير أيضاً طفلاً صغيراً ليس له جزء من مليون جزء من علم ذلك الطبيب ولا خبرته، فيشير عليه أيضاً بإجراءات معينة وينصحه بتناول بعض الأدوية!!

إن مجرد تردد هذا (الإنسان؟) وقوله: "برأي مَن يا ترى سآخذ؟ بقول الطبيب أم الطفل؟" يدفعنا إلى اتهامه بالغباء بل وبالجنون، فكيف بمن لم يتردد أبداً... بل سارع على الفور إلى تنفيذ وصفة الطفل قائلاً : هذا هو الصواب، هذا هو الأحسن، ولماذا يجب أن عليَّ أن آخذ برأي الطبيب!!

ولست أرى امتثال أمر الله تبارك وتعالى ورجاء وعده وخوف وعيده إلا من هذا الباب المنطقي، ولله المثل الأعلى.

إن الفارق العلمي بين ذلك الطفل والطبيب لا يساوي شيئاً إذا ما قارناه بالفارق بين علم الله جل جلاله وعلم الإنسان، إن صحت مثل هذه المقارنة!!

وإذا كنا نتهم بالغباء من يفضل قول طفل على طبيب مرة، فقد حق ذلك لمن يفضل كلام المخلوق على كلام الخالق ألف مرة.

إن العدد مليون صغير جداً إذا قارنته بالعدد (لا نهاية : ∞)، ومعلوم في الرياضيات أن خارج قسمة ملايين الملايين إلى ∞ هو عدد قريب جداً من العدد المعدوم (الصفر).

وذلك مَثَل نسبة علم الناس جميعاً إلى علم العليم الخبير سبحانه :

1 – فعلم الإنسان مهما تطور فهو محدود، ولا يملك أحد ولا مجموعة مهما بلغت من العلم أن تقول : إن ما توصلنا إليه في هذا المجال هو آخر شيء، وليس وراءه مزيد لمستزيد،

2 – بينما نؤمن نحن – معشر المسلمين – أن علم الله علم مطلق غير محدود ولا منته، ومن هنا صح أن نقول إن الإنسان جاهل أمام العليم الخبير، وعاجز أمام القادر القهار، وهكذا...

إننا – معشر العقلاء – نقر جميعاً أن تجاهُل أمر الأعلم إلى من تحته في العلم والخبرة غباء شنيع لا نتوقعه من عاقل، ثم.... إذا ما تحول الأمر إلى تجاهل أحكام الشريعة والأخذ برأي شخصي يقول صاحبه: " إن هذا هو الصواب، إن هذا الأحسن، ولماذا يجب عليَّ أن آخذ برأي الشريعة؟؟" قلنا إن هذا تحضر ورقي، وتماش مع العصر.

وفي ذلك تناقض بين، لا يجوز أن يقع فيه – أيضاً – من كان في رأسه مثقال ذرة من عقل.

إذا عُلم ذلك، فلنعلم أن من أكثر ما يثقل الميزان يوم القيامة، ويزيد في الحسنات من وجهة نظر الإسلام الحبَّ في الله، والإخاء ابتغاء ما عند الله، وذلك من وجوه عدة:

حلاوة الإيمان تنال بثلاث قربات، إحداها الحب في الله:

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ".

الحب في الله سبب لنيل ظل العرش يوم القيامة:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي".

منابر من نور تنال بالحب في الله:

روى الترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: "قال الله عز و جل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء". (وقال: حديث حسن صحيح)

الحب في الله طريق إلى محبة الله للعبد:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " زار رجل أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له ملكاً على مدرجته فقال : أين تريد؟ قال: أخاً لي في هذه القرية، قال : هل له عليك من نعمة تربها؟ قال : لا، غير أني أحببته في الله، قال : فإني رسول الله إليك: إن الله قد أحبك كما أحببته".[ومعنى تربها: تردها]

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: " قال الله تعالى : حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين في، وحقت محبتي للمتناصحين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين في، وحقت محبتي للمتباذلين في، المتحابون على منابر من نور يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء".(رواه الحاكم وصححه)

الحب في الله مقياس للتفاضل عند الله:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تحاب اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلَهما أشدُّهما حباً لصاحبه".(رواه الحاكم، وابن حبان في صحيحه)

وإنني أدعو كل من ابتلي في حياته بأن انفض عنه الناس وتركه أصدقاؤه، ثم طُعن.... فالتفت.... فإذا بالطاعن أقرب من كان يزعم صداقته، ألَّا تيئس فما زال في الدنيا من يستحق أن يخلع عليه لقب "الصداقة"، لا... بل و"الأخوة".

وصدقني، إنني إذ بحثت، لم أجد هؤلاء إلا في المساجد: في مكان تُدرَّس فيه الصداقة على أنها دين- وهي كذلك- ويقال فيه عن حب الأصدقاء أنه من أفضل القربات عند الله.

ولعمري من أين لك بصديق صفاته:الصدق والوفاء والإخلاص في الحب.

يكفي أنك إن غادرته أمنت على نفسك من كل غيبة وانتقاص، وإذا استيقظ في جوف الليل استرسل بالدعاء لك، وربما أنسته ذكراك أن يتوجه لنفسه بشيء من ذلك الابتهال.

ويكفي أن نقول : إنه يحبك، ولك بعد ذلك أن تتصور ما يفعل المحب في سبيل محبوبه، فتأمل...

ومن الفوائد الأخروية:

الاستقامة والثبات: من الممكن أن يتأثر القارئ المسلم ببعض الكتابات المتفوقة، تلك التي يستغرقك الوقت الطويل في قرائتها بدون أن تشعر، لتعيش في "عالم الأفكار"، خاصة إذا رافق هذا الأسلوب المتألق – وما أحوجنا إليه – صدق في التأليف، ورغبة جادة في الإصلاح من خلال الكلمة المعبرة، والجملة المؤثرة.

إن من الممكن أن يتأثر بمثل هذا ويقرر أن يلتزم بما قرأ، ويأخذ نفسه بخطوات جادة، ويبدأ العمل بدون تسويف ولا تأخير ولا تأجيل، ويفعل ويفعل ...

ولكن...

النسيان من طبيعة البشر، فيحتاج معه إلى التذكير والوعظ.

والخطأ من سلوكيات الناس المعتادة، فيحتاج معه إلى المتابعة والتسديد.

وهذا ما يفعله المدرِّس في المسجد.

قال سبحانه وتعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}الذاريات55.

وروى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا في كل يوم، قال: "أما إنه يمنعني من ذلك اني أكره أن أُملَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا".

وكذلك...

فإن الطريق طويل، فيحتاج السالك فيه إلى صحبة.

والطريق وعر فيحتاج السالك فيه إلى معين.

وهذا ما تفعله الصحبة الصالحة في المساجد.

وفي ثنايا تفسير قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} غافر3، ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى قصة صالحة للاستشهاد هنا عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

"عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب، ففقده عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، يتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: "من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير". ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي.

وروى الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان، وزاد :"فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه".

أما خاتمة الفوائد الروحية والأخروية للدروس المسجدية في بحثنل هذا فدونك بيانها:

إخلاص النية والحماس للدين : وذلك حينما ترى المدرس أمامك يحترق – إن صح التعبير – في سبيل تقديم نصيحة أو طرح فكرة، وحينما تجده يتفاعل مع الدرس بقلبه وروحه قبل عقله وفكره، وربما تلون وجهه وانتفخت أوداجه وعلا صوته وجحظت عيناه لذكر شيء مما عليه المسلمون اليوم، وما يتعرضون له من خصومات وعداوات، وربما خشع جسمه وذرفت عيناه وحشرج صوته لذكر شيء من علامات الساعة أو موقف من مواقف يوم الدين...إلى ما هنالك مما يتفرد به الإنسان ولا يفعله الكتاب.

حينما يرى الطالب ذلك يدرك حقيقة هذا العلم – أعني العلم الشرعي – فهو ليس ترفاً علمياً، ولا حشواً للعقول والأدمغة بأفكار وفلسفات وأيديولوجيات معينة، كلا! بل هو علم للعمل، ونصائح للتطبيق، ومواعظ للتأثر، ولن

يستفيد المؤمن منه، ولن يغني عنه في شيء إلا أن يعطيه من روحه، ويهبه من همه وفكره وقلبه، عند ذلك – وعند ذلك فقط – يؤتي هذا العلم أكله، وتُجنى ثماره، في الدنيا : بالحماس له والعمل به والدعوة إليه والدفاع عنه، وفي الأخرى : بالأجر والمثوبة من الحنان المنان، تباركت أسماؤه.

ومعلوم أنه لا بد من إخلاص النية لله وحده، ونبذ كل ما قد يعلق بهذا العلم من رياء ومماراة، وحب للتفوق على الأقران، ومباهاة للعلماء....

إذ كل ذلك مما يخرج العلم الشرعي عن هدفه، ويبعده عن مبتغاه، ذلك الهدف الأعلى : في تحويله من كلمات على الأوراق إلى أفعال في الرجال.

من أجل ذلك قال البشير النذير صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: " من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عَرف الجنة يوم القيامة".(حديث صحيح رواه الإمام أحمد وأبو داوود عن أبي هريرة رضي الله عنه)

وما أكثر ما يتعرض من يستقل بالكتاب وحده في تعلم العلوم الشرعية إلى مثل هذا الغَبَش في النية، وقد قال عليه الصلاة والسلام محذراً : "لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتجترئوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنارُ النارُ". (رواه الحاكم وصححه، وابن ماجه مرفوعاً عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه)

وقد ورد عن الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى أنه قال: "كان هذا العلم شيئاً شريفاً، إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله".[نقلاً عن كتاب المفصل في أحكام الهجرة، لعلي الشحود]

خلاصة:

علمنا مما سبق أن للدروس المسجدية نتائج وآثاراً أخروية وروحية تزيد على كونها فوائد علمية مجردة، وهي: تحصيل الأجر الأخروي، والأخوة في الله عز وجل، والاستقامة والثبات، وإخلاص النية والحماس للدين.

صفوة البحث:

علمنا من كل ما سبق:

أن اتهام القلة التي تحضر الدروس المسجدية اليوم يستلزم بالضرورة اتهاماً مماثلاً للقائمين على المدارس والجامعات من مؤسسين ومدرسين وطلاب، كما يستلزم – أيضاً – بالضرورة اتهاماً مماثلاً لعلماء الأمة جميعهم منذ أقدم عصورها.

وأن لحضور الطالب الدروس العلمية في المساجد فوائد تزيد على مجرد الحصول على تلك المعلومات من الكتب وحدها، وهي: تعلم الحوار العلمي، والأخوة العلمية، وتفادي الأخطاء المحتملة، وتوفير الوقت والجهد.

وأن للدروس المسجدية تنائج وآثاراً أخروية وروحية تزيد على كونها فوائد علمية مجردة، وهي: تحصيل الأجر الأخروي، والأخوة في الله عز وجل، والاستقامة والثبات، وإخلاص النية والحماس للدين.

فهذه أهم الأسباب التي تدفعنا إلى القول:

ومن يكن آخذاً للعلم من كتب فعلمه عند أهل العلم كالعدم

وقبل الختام:

أودُّ أن أشير من باب "الأمانة العلمية" إلى أنني جنحتُ في شيء مما كتبته إلى المثالية دون الواقعية، وخاصة فيما يتعلق بـ "الأخوة العلمية" وما يجري بين الطلاب من حوار بعد الدرس، ولكني احترزتُ من ذلك بالتركيز على لفظ "الطلاب الأذكياء".

والواقع في كثير من الأحيان – ويا للأسف – هو عكس هذه الحوارات تماماً.

ولكني رأيت أن من الإجحاف ألا أذكر في بحث كهذا هذه الفائدة الكبرى، من باب تفعيلها إذا كانت معدومة، أوتقويتها إذا كانت نادرة.

ولم أبتدع بذلك شيئاً جديداً، فالدكتور عبد الكريم بكار – نفع الله به – في كتابه " القراءة المثمرة " يقول في الخاتمة بعد أن أوضح أهم ما يجب على القارئ أن يتبعه عند القراءة: "ولا يخفى أن ما ذكرناه هو النموذج الأرقى في تنظيم الجهود القرائية، وسيكون بإمكان كل قارئ أن يقترب من ذلك النموذج على قدر ما تسمح به إمكاناته وظروفه، وكما أشرنا من قبل فإنه مع أن ثمة مفارقة أبدية بين النظرية والتطبيق إلا أن توضيح الحد الأقصى للكمال يظل مهماً حتى يتنافس في الوصول إليه المتنافسون".[صـ 123]

ختام:

ولا أملك – في الحقيقة – أن أقول إن هذه هي كل الفوائد التي يحصلها الطالب المسلم من حضوره الدروس المسجدية، بل هي فقط ما يزيد على مجرد قراءته للكتب وحده في المنزل، وهو ما يقتضيه بحثنا هنا.

أما انتقاله من الإيمان القائم على التقليد إلى الإيمان المرتكز على الأدلة والبراهين من جراء تعلمه العقيدة وعلومها.

وأما معرفته الدقيقة بأحكام الشريعة من جراء تعلمه الفقه وأصوله.

وأما اكتسابه مهارة فائقة في التواصل الاجتماعي والتعامل مع الناس من جراء تعلمه سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وأما حكمته في التعامل مع رعونات النفس وشهواتها الجارفة من جراء تعلمه التربية الإسلامية والتزكية النفسية.

فأما كل ذلك وغيره فلم أتعرض له فيما سبق إذ إنه مما لا يتطلب بالضرورة حضور الدروس بل يمكن تحصيل كثير منه من الكتاب وحده.

وتكون الدروس بعدها مفتاحاً يتأهل الطالب بها لقراءة المطولات، ويتوصل من خلالها إلى دقائق العلم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكتبه محمد المسافر

وكان الفراغ منه بتاريخ:

10 / ربيع الأنور / 1432 من الهجرة النبوية المشرفة

الموافق لـ 2011/2/14 من ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام

في دمشق المحروسة أدام الله عليها الأمن والإيمان وعلى سائر بلاد الدنيا